قصة آية

28

ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم

بقلم : د. وجيه يعقوب السيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى

طبع ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ

قَالَ (تعالى) :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [سورة آل عمران : ١٠٠ ، ١٠١]

قبلَ الإسلامِ ، كانتْ قَبيلَتا الأَوْسِ والْخَزْرَجِ فى حُرُوبٍ دائِمةٍ ، لا تَكادُ تهدأُ حَرْبٌ حتَّى تشْتَعِلَ أُخْرَى ، ولما بعثَ اللَّهُ رسولَهُ ﷺ برسَالَةِ الْحُبِّ والتَّسامُحِ والرَّحْمَةِ ،

دخَلَ الأَوْس والْخَـزْرَجُ فى الإِسْـلام ، فتَحولَتِ الحروبُ إلى حُبٍّ وسَلامٍ ، وأَلَّفَ اللّهُ بيْنَ قُلوبِهم حتى صَارُوا بِنعْمَةِ اللّهِ إخْوانًا مُتحابِّين .

وكانَ مرشَاسُ بن قَيسٍ الْيهودىُّ رجلاً شَـديدَ الكُفْرِ باللّهِ ، يكْرَهُ الْمُسلمينَ كَراهيَةً شديدَةً ، ويَحْسُدُهُم على هذا الْحُبِّ والتَّرابُطِ الذى يَجمعُ بيْنَهُمْ .

وازْدادَتْ كَراهِيَةُ مرْشَاسٍ للْمسلمينَ بعْدَ هذا الْوِئامِ ، الذى جمعَ بيْنَ الأَوْسِ والْخَزْرجِ ، فقالَ مرْشَاسٌ فى نَفْسِه :

ـ لا أُصَدِّقُ ما أرَى ، كيفَ تتحوَّلُ العَداوةُ والبَغْضاءُ إلى حُبٍّ ومَودَّةٍ ؟ وكيفَ ينْسَى هؤلاءِ الْمُسْلمون ثاراتِهمُ الْقديمَةَ ؟

ودعا مرْشاسٌ شابًّا يهوديًّا وقال له :

ـ أتَرى هذَيْنِ الْحَيَّيْنِ منَ الأوْسِ والْخَزْرَجِ ؟

فقالَ الشابُّ :

ـ نعم ، أعْرِفُهما فالْكثيرُ منْهُمْ يشْتَرُونَ الْبَضائعَ منِّي .

فقالَ مرْشَاسٌ :

ـ لقدِ اجْتَمعوا علَى هدَفٍ واحدٍ ، وجَمَعهُمْ دينٌ واحدٌ ، وواللَّه لوْ تركْناهُمْ

هكَذا لما اسْتَقرَّ لنا قَرارٌ ، وما أَصْبحَ لنا شَأْنٌ .

فقالَ الشابُّ :

ـ مُنْذُ جاءَهُم مُحمدٌ ودعاهُمْ إِلى الإسْلامِ ، وهمْ على هذا الْحالِ ، فما يَسْتطيعُ أَحَدٌ أَنْ يُغَيِّرَهُ .

فقالَ مرشَاسٌ :

ـ سوفَ ترى أَنَّ هذَا الْحالَ يُمكِنُ تغْييرُهُ لوْ أَفْلَحتْ حِيلَتِي .

فسألَ الشَّابُّ فِي لَهْفَةٍ :

ـ أَخْبِرْنِي ماذَا تَنوِى أَنْ تصْنَعَ ؟

أَغْمَضَ مِرْشَاسُ إِحْدَى عَيْنَيْهِ قَلِيلاً ،
وَهَمَسَ إِلَى الشَّابِّ قَائِلاً :

ـ اجْلِسْ مَعَهُمْ ، وَذَكِّرْهُمْ بِيَوْمِ بُعَاثَ ،
ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِى اقْتَتَلَتْ فِيهِ الأَوْسُ
وَالْخَزْرَجُ ، وَكَانَ الظَّفَرُ فِيهِ لِلأَوْسِ ،
وَأَنْشِدْهُمْ بَعْضَ مَا كَانُوا يَقُولُونَهُ مِنْ أَشْعَارٍ .

وَذَهَبَ الشَّابُّ حَتَّى انْدَسَّ بَيْنَ الأَوْسِ
وَالْخَزْرَجِ ، وَعِنْدَمَا وَجَدَ الْفُرْصَةَ مُوَاتِيَةً ،
أَنْشَدَ بَعْضَ الأَشْعَارِ الَّتِى قَالَتْهَا الأَوْسُ أَيَّامَ
الْجَاهِلِيَّةِ ، فَغَضِبَتِ الْخَزْرَجُ وَقَالَتْ :

ـ لَقَدْ قَالَ شَاعِرُنَا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا .



فقالَتِ الأَوْسُ :

ـ وقد قالَ شاعِرُنا يومَ كذا : كذا وكذا .

وتحوَّلَ الصَّفاءُ والْحُبُّ إلى تفاخُرٍ وتَباغُضٍ ، وعَلَتِ الأَصْواتُ وحلَّ التَّنازُعُ ، حتى قالَ أَحدُ الْفَريقَيْنِ :

ـ واللَّهِ ، إنْ شِئْتُمْ لَرَدَدْناها الآنَ حرْبًا جَذْعاءَ كما كانَتْ .

ونادَى الأَوْسُ :

ـ يا بَني أَوْسٍ ، اجْمَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ .

ونادَى الْخزرَجُ :

ـ يا آلَ خَزْرَجَ ، اجْمَعُوا أَسْلحتكُمْ .

وَاجْتمعَ الأَوْسُ وَالْخزرَجُ وهمْ يَحْملونَ السِّلاحَ ، وأَخذَ كلٌّ واحدٍ موْضعَهُ اسْتعْداداً لِبَدْءِ الْقِتالِ ، وسْطَ مشاعِرِ الْبهْجةِ والْفرْحَةِ منَ الْيهودِ ، بيْنما خيَّمَ الْحُزْنُ على الْمُسْلمينَ ، بعْدَ أَنْ فشلوا فى إِقْناعِ الأَوْسِ والْخزرَجِ بالصُّلْحِ بِشتَّى الطُّرُقِ .

وأَسْرعَ رجلٌ منَ المسلمينَ إلى الرَّسولِ ﷺ ، وقالَ فى أَسًى :

ـ تدارَكِ الْمسلمينَ يا رسولَ اللَّهِ .

فتعجَّبَ الرسُولُ ﷺ وسأَلَ الرَّجُلَ عمَّا يَعْنيهِ ، فقالَ الرَّجلُ :

ـ إنَّ الأَوْسَ والْخَزْرَجَ يقْتَتِلان الآنَ ، وقدْ جِئْتُكَ مُسْرِعًا وهما يُوشكَان على الْقتال ، فاذْهَبْ إِلَيْهم يا رسولَ اللّه ، وتدارَكْهُمْ قَبْلَ أَنْ يَقْتُلَ بعْضُهُم بَعْضًا .

وتعجَّبَ الْمسلمونَ مِنْ ذلكَ وقالوا :

ـ كيْفَ يفْعَلونَ ذلك ، وقدْ نَهى رسولُ اللّه ﷺ عنْ قِتالِ الْمُسْلِمِ ، فقالَ : سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وقِتالُه كُفْرٌ . كما قالَ : إذا الْتقَى الْمُسْلمانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ والْمَقْتُولُ فى النارِ ؟

وخرجَ الرسولُ ﷺ مُسْرِعًا ومعَهُ جَمَاعَةٌ

مِنَ الْمُهاجِرِينَ ،حتى جاءَ الأَوْسَ والْخزرجَ ، فقال لهم :

ـ يا مَعْشَرَ الْمُسْلمين ، أَبدَعْوَى الْجاهلِيَّةِ وأنا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ، بعْدَ أَنْ أَكْرَمَكُمُ اللَّهُ بالإِسْلامِ ، وقطع به عَنْكُمْ أَمْرَ الْجاهلية ، وأَلَّفَ بيْنَكم ، فتَرْجِعُونَ إلى ما كُنتمْ عليه كفَّاراً ؟؟ اللَّهَ اللَّهَ !

ورأَى الأَوْسُ والْخَزْرَجُ الْغَضَبَ فى وجهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فأَدْرَكُوا أَنَّهُمْ قَدْ أَخْطَئُوا خطأً فادحًا وقالوا :

ـ إِنَّهـا نَزْغَـةٌ منَ الشَّيْطانِ ، وكَيْـدٌ منَ الْعَدُوِّ يا رسولَ اللَّهِ .

وأَلْقَوُا السِّلاحَ من أَيْديهِمْ ، وبَكَوْا بُكاءً حارًا ، وأَخَذَ بعْضُهُم يُعانِقُ بعْضًا ، ثم انْصَرَفُوا مع رسولِ اللَّه ﷺ في سكينَةٍ وخُشُوعٍ ، بعْدَ أنْ سادَ الحُبُّ والمودَّةُ بَيْنَهُمْ مرَّةً أُخرى بعْدَ قُدومِ رسولِ اللَّه ﷺ .

وأنْزَلَ اللَّهُ (عزَّ وجلَّ) في هذه المُناسَبَةِ قوْلَهُ :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

يَصِفُ جابرُ بْنُ عبدِ اللَّه ـ أحدُ الذين حَضَروا

هذا الْيَوْمَ وشَارَكوا فِيه - مشَاعِرَ الْغَيظِ والْغَضَبِ بقولِه :

- ما كانَ أحدٌ أكْرَهَ إلينا من رسولِ اللَّه ﷺ في ذلكَ الْيَوْمِ ، فأَوْمأَ إلينا بيدِه فكَفَفْنَا ، وأَصْلَحَ اللَّهُ (تعالى) ما بيْنَنَا .

وذلكَ بسَبَبِ شِدَّةِ الْغَضَبِ واسْتحواذِ الشَّيْطانِ عليْهِمْ ، فكَانوا يَكْرهونَ حُضُورَ الرَّسُولِ ﷺ أوْ رُؤْيَتَهُ حتى تَشْتَعِلَ الْحَرْبُ بيْنَ الْفَرِيقَيْنِ .

ويُضِيفُ جابرُ بْنُ عَبْدِ اللَّه قائلاً :

- فما كانَ شَخْصٌ أحَبّ إلَيْنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بعْدَ ذلِكَ ، فما رأَيْتُ يومًا أقْبَحَ

ولا أوْحشَ أوّلاً ، وأحْسنَ آخراً من ذلكَ الْيومِ .

وأسْدلَ السّتارُ مرَّةً أُخرى على الصّراعِ بينَ الأوْسِ والْخزرجِ ، وعادَ الوئامُ والْحبُّ إلى المسْلمينَ ، بعْدَ أنِ اسْتَمعُوا لهذه الآيات ، بيْنما بَقِيَ مرشاسُ بْنُ قيْسٍ الْيهوديُّ يَعضُّ أناملَ الْغيظِ ، ويَشْعُرُ بالْحسْرَةِ بعْدَ أنْ باءَتْ مُحاولاتُهُ ومُحاولاتُ الْيهُودِ بالْفشَلِ .

ولعَلَّ الْمُتأمِّلَ لهذه الآياتِ والْمُتدبِّرَ لمعَانيهَا يُدْرِكُ بوُضوحٍ : لماذا وصَلَ الْمُسْلمونَ إلى هذَا الْحالِ الْيوْمَ ؟

لقدْ أدركَ أعْداءُ الإسْلامِ مُنْذُ الْقديمِ أنَّ سرَّ قُوَّةِ الْمُسْلمينَ يرجعُ إلى وحْدتِهمْ ،

ففكَّروا فى تَفريقِهِم وتشْتيتِهم ، ولَمْ يُفلِحُوا فى أكْثرِ مُحاولاتِهم ؛ لأنَّ اللّه كانَ يعْصِمُ المُسْلمين من ذلكَ ، كما كانَ لدَى المُسلمينَ الوَعْىُ الكَافى لاكْتشافِ مؤامراتِ الأعْداءِ فى الوَقْتِ المناسبِ .

أمَّا أعداءُ الإسْلامِ اليوْمَ ، فهُم أكْثرُ ذكاءً من أعْداءِ الأمْسِ ، فقدْ فرَّقوا بيْنَ المُسْلمينَ ، وغَرَسُوا الفِتنَ والحُروبَ بيْنَهُم وزرَعُوا بُذُورَ الكَراهيَةِ والبَغْضاءِ بيْنَهُم ، حتى أصبحَ كلُّ مسْلمٍ لا يُفكِّرُ إلاَّ فى نَفْسِه ، وذلكَ على الرَّغْمِ منْ أنَّ رسولَ اللّه ﷺ يقولُ :

«مَثلُ المؤْمنينَ فى توادِّهِمْ وتَعاطُفِهِمْ

وتراحُمِهم كمَثَلِ الْجسدِ الْواحِدِ إذا اشْتَكَى منهُ عضْوٌ تداعَى له سائِرُ الْجسدِ بالسَّهرِ والْحُمَّى»

يا سيدى يا رسولَ اللّه ، نَبثُّك حالَنا ، فإذا كانَ الأَوْسُ والْخزرجُ اقْتَتلوا بالأَمْسِ ، أَوْ أَوْشَكوا على الْقتالِ فمنَعْتَهُم ، فالْيَوْمَ أَلْفُ أَوْسٍ وأَلْفُ خَزْرجٍ ولا يَمْنَعُهم أَحدٌ ، برغْمِ أَنَّ كِتابَ اللّه حىٌّ بَيْننا ، وسُنَّتَك حاضِرَةٌ لا تَغيبُ ، وقدْ قلْتَ وقوْلُكَ الْحقُّ :

«تركْتُ فيكُمْ ما إنْ تمسَّكْتُم به لَنْ تَضلُّوا بعْدى أَبداً كِتابَ اللّهِ وَسُنَّتِى» .

فها نَحْن يا رسُولَ اللّه نسألُ اللّهَ أَنْ يوحِّدَ

صُفُوفَنَا ، وَيَجْمَعَ شَمْلَنَا ، حتى نَعُودَ أَقْوَى أُمَّةٍ تَحْمِلُ أَفْضَلَ رِسَالَةٍ ، وما زِلْنَا نَتَغَنَّى مَعَ الشَّاعِرِ بِقَوْلِهِ :

– إذا زُرْتَ بَعْدَ الْبَيْتِ قَبْرَ مُحَمَّدٍ
وَقَبَّلْتَ مَثْوَى الأَعْظُمِ الْعَطِرَاتِ
وَفَاضَتْ مِنَ الدَّمْعِ الْعُيُونُ مَهَابَةً
لأَحْمَدَ بَيْنَ السِّتْرِ وَالْحُجُرَاتِ
فَقُلْ لِرَسُولِ اللَّهِ : يَا خَيْرَ مُرْسَلٍ
أَبُثُّكَ مَا تَدْرِى مِنَ الْحَسَرَاتِ
شُعُوبُكَ فِى طُولِ الْبِلادِ وَعَرْضِهَا
كَأَصْحَابِ كَهْفٍ فِى عَمِيقِ سُبَاتِ
بِأَيْمَانِهِمْ نُورَانِ : ذِكْرٌ وَسُنَّةٌ
فَمَا بَالُهُمْ فِى حَالِكِ الظُّلُمَاتِ ؟

رقم الإيداع : ١٤٠١٧ / ٢٠٠١
الترقيم الدولى : ٨ ـ ٦٥٨ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧